

تصدير الطبعة الثانية

سبق أن طُبع كتاب « منهج البحث التاريخي » في القاهرة سنة ١٩٤٣ . وقد نفذت طبعته الأولى بعد صدوره بقليل ، لقلّة العدد المطبوع منه . ومنذ ذلك الوقت سألتني بعض أصحاب المكتبات وبعض الطلاب وبعض الزملاء في هذه البلاد وفي غيرها من البلاد العربية ، عن إمكان الحصول على نسخ منه أو عن النظر في إعادة طبعه .

ورأيت أخيراً أن أعيد طبع هذا الكتاب ، وأسفّته لأن وقي لم يتسع لتعديل مضمونه على نحوٍ أوسع ، إذ أن أكثر وقي مُستغرق في عملٍ ، يجمع بين الأدب والفن والتاريخ ، بدأته منذ ربع قرن ، وأرجو أن تُتاح لي فرصة إكماله . وعلى كل حال فقد أدخلت على هذا الكتاب بعض الإضافات والتعديلات اليسيرة . وأعتقد أن إعادة طبعه بهذه الصورة لا يخلو من النفع لطلاب التاريخ ودارسيه بخاصة ولطلاب العلم والمعرفة بعامة .

وإني أضّمّ هذه الطبعة من هذا الكتاب إلى سائر الكتب العربية ، التي صدرت منذ أواخر الثلاثينيات ، والتي تناول « موضوع دراسة التاريخ » أو « منهج البحث فيه » والتي أمكنني الوصول إليها ، وقد أشرت إليها في قائمة المراجع ، مؤملاً أن تحقق جميعاً الغرض الذي وُضعت من أجله .

وإني أتقدم بالشكر والإعزاز إلى جماعة من الأصدقاء الذين كان لهم الفضل في إعادة نشر هذا الكتاب بالتشجيع الأدبي ، أو بشرح مسألة ، أو بإطلاعي على بعض الكتب القيمة ، أتقدم بالشكر إلى الأساتذة والدكاترة جمال الدين الشيال ، والسيد الباز العريني ، ورشاد عبد المطالب ، ومحمد محمود الصياد ، ومحمد محمد طيفور ، ومحمد عبد الفتاح القصاص ، والشاطر بصيلي عبد الجليل ، ومحمد الخولي ، وورينيه خورى ، وعلى النشار .

وأتقدم بجزيل الشكر إلى رجال دار المعارف لما بذلوه من الجهد ورحابة الصدر في سبيل إخراج هذا الكتاب .

ولأني أنتهز هذه الفرصة لتحية الدكتور أسد رسم أستاذ التاريخ بالجامعة اللبنانية في بيروت ، ورائد هذه الدراسة المنهجية في اللغة العربية بالمعنى العلمي الحديث .

وأرجو أن يأتي في المستقبل مَنْ يَفعل في هذا الصدد أفضل مما فعله السابقون .

حسن عثمان

معهد الدراسات الأفريقية

بجامعة القاهرة

٣٣ شارع المساحة - الدق

١٥ أكتوبر ١٩٦٤

تصدير الطبعة الأولى

انقضى ذلك الزمن الذى اعتُبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث ، لكي يحفظ ذكرى الماضى ويمجد الأفعال البارزة فى حياة الأشخاص والأمم ، أو أنه نوع من الثقافة العامة اللازمة لإعداد الرجال للحياة السياسية أو الحربية ، أو أنه فرع من فروع الأدب يُدرس للتسلية وإمتاع النفس . وظلّ التاريخ يتداوله الأدباء حيناً والباحثون المدققون حيناً آخر ، حتى تغيرت نظرة العلماء إليه ، ووجد البحث العلمى التاريخى ، وقصد الدارسون الوصول إلى الحقيقة التاريخية فى ذاتها بقدر المستطاع ، والتي عن طريقها يُمكن الاستفادة بها فى الأغراض السالفة الذكر ، ولكن الفائدة فى هذه الحال تُصبح قائمة على الوقائع الصحيحة الواضحة . وبذلك توطّدت قواعد الدراسة التاريخية فى أوروبا فى القرن الماضى ، وعُنيَت البيئات العلمية بجمع الأصول التاريخية ، ونشرها ، والتأليف فى شتى نواحي التاريخ ودراسة « منهج البحث التاريخى » .

وإن « منهج البحث التاريخى » لمن الأسس الهامة فى تقديم دراسة التاريخ . وقد عُنى به الغربيون ، ووضعوا فيه مؤلفات عديدة فى لغاتهم المختلفة ، واسترشد بقواعده الباحثون فى أثناء دراساتهم التاريخية ، ولكن الشرق العربى قليل الحظ من دراسة « منهج البحث التاريخى » بالأسلوب الحديث ، على الرغم من الجهود التى بذلها بعض المشتغلين بالتاريخ قديماً وحديثاً . ووجدت أخيراً محاولة لدراسة هذه الناحية الهامة . فالدكتور أسد رستم يقوم بتدريس « منهج البحث التاريخى » منذ سنوات فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وقد نشر نتيجة دراسته فى كتابه القيم « مصطلح التاريخ » فى صيف سنة ١٩٣٩ ، وكان أول كتاب فى اللغة العربية عن « منهج البحث التاريخى » بالمعنى العلمى الحديث .

وأرجو أن تُعنى الهيئات العلمية فى مصر ، وبخاصة كليتى الآداب بالقاهرة والإسكندرية ، العناية الواجبة بهذه الدراسة . فَمَا لا ريب فيه أن دراسة « منهج

البحث التاريخي « ضرورة للمختصين في التاريخ ، ممن يتصدون لكتابته ، أو للمشتغلين بتدريسه للطلاب ، أو للطلاب أنفسهم ، فضلاً عن أن هذه الدراسة ينبغي أن تكون جزءاً من ثقافة جمهور المعلمين بصفة عامة ، لأنها تشحذ الذهن ، وتعلم العقل العمل المنتظم ، وتدرّبه على النقد والتمحيص .

وإني أقدم هذا الكتاب - الذي سبق أن نشرت بعض فصوله في مجلة الرسالة - خلاصة لبعض المؤلفات الأوروبية ، مثل كتابات لانجلوا وسينيوبوس وفيلينج وفنست وكيروثشي . . . مع الاسترشاد ببعض ما كتبه علماء المسلمين في الرواية والحديث ، كما أضفت بعض الأمثلة التي عرضت لي في أثناء البحوث التاريخية التي قمت بها .

وأرجو أن يحقق هذا الكتاب بعض النفع الذي وُضع من أجله ، وأن تتلوه كتب أخرى عن النواحي المختلفة في دراسة التاريخ . وإني أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) لتفضله بمراجعة المخطوطة وتصحيح الكتاب ، كما أشكر زملائي الذين شجعوني على إتمامه .

كلية الآداب بجامعة (الإسكندرية) في يناير ١٩٤٣

مقدمة

معنى التاريخ - هل التاريخ علم أم فن - أهمية دراسة التاريخ - بعض صفات المؤرخ -
منهج البحث التاريخي - دراسة آثار الإنسان ومخلفاته - تحديد قيمة المؤلفات التاريخية .

ما المقصود بدراسة التاريخ ؟ وهل تستحق دراسة التاريخ كل ما تبذله الأمم المتحضرة في سبيله من عناء وجهد ومال وزمن ؟ وهل يستدعي مضمونه الغور في أعماقه إلى هذا الحد ؟ وما الذى يمكن أن نفيد به من دراسة التاريخ وكتابه ؟ لكى نصل إلى رأى مناسب بصدد هذه الأسئلة يحسن بنا أن نشير أولاً إلى ما يمكن أن يدلّ عليه لفظ « التاريخ » .

يدلّ لفظ « التاريخ » على معانٍ متفاوتة . فيعتبر بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على المعلومات التى يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله ، بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض ، وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان . وبدأ المؤرخون الأقدمون كتاباتهم بالكلام عن نشأة الأرض . ومن المحدثين نجد المؤرخ هـ . ج . ولتر * يبدأ كتابه في « موجز تاريخ العالم » بدراسة نشأة الكون والأرض ، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة ، وهو في ذلك يفعل كما يفعل المصور أو المثال الذى يعتمد على تشريح جسم الإنسان أو الحيوان ، حتى يمكنه أن يرسم الصورة أو يصنع التمثال ، على أفضل وجه مستطاع . ثم يتدرج ولتر في عرض تواريخ الأمم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث معبراً في ذلك عن وحدة البشرية ، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها .

* هربرت جورج ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦ . Herbert George Wells) الرواى الاجتماعى المؤرخ المصلح البيوتوي الإنجليزى . حصل على البكالوريوس فى العلوم من جامعة لندن واشتغل بتدريس العلوم ثم عمل بالصحافة وكان عضواً بالجمعية الفابية . وصف في مؤلفاته مسأرى العصر وتطلع إلى بناء عالم جديد على أساس من الاشتراكية والعدالة . ويمتاز أسلوبه بالحوية والصدق والبساطة والوضوح . ومن مؤلفاته « عصر الآلة » و « الرجل غير المرئى » و « حرب العوالم » و « رجال فى القمر » و « البيوتويا الحديثة » و « كيبس » و « زمان الصاروخ » و « موجز تاريخ العالم » . ويؤخذ عليه التسرع فى أحكامه وعدم صبره على التطور الديمقراطى الوئيد .

ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي ، كما يدل على ذلك لفظ (historia) المستمد من الأصل اليوناني القديم ، أى كل ما يتعلق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض (١) ، بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألمت بالشعوب والأفراد . وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلى الذى يصنعه الأبطال والشعوب (٢) ، التى وقعت منذ أقدم العصور ، واستمرت وتطورت فى الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر .

وفى اللغة العربية التاريخ والتأريخ والتوريف يعنى الإعلام بالوقت . وقد يدل تاريخ الشيء على غايته ووقته الذى ينتهى إليه زمنه ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجلية . وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان ، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان وفى الزمان (٣) .

وحيثما أخذ الإنسان البدائى منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجةً بأساطيره ومعتقداته ، بدأ التاريخ يظهر إلى حيز الوجود فى صورة بدائية أولية ، وبدأ الإحساس به يتكوّن فى ذهن البشرية منذ أقدم العصور ، وتدرج التعبير عن التاريخ مختلطاً أولاً بعناصر من الفن ، كالرسم والنقش على الحجر . وعندما

(١) Oman, Ch. : On The Writing of History. London, 1939. p. 2.

(٢) هرنشو ، ف : علم التاريخ . ترجمة عن الإنجليزية وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادى القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٨ .

والأستاذ العبادى (١٨٩٢ - ١٩٥٦) ولد وتوفى بالإسكندرية . درس فى مدرسة المعلمين العليا ، وأسهم فى بناء لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكان ذواقاً للأدب ودارساً منهجياً للتاريخ الإسلامى . وعلم فى كليتى الآداب بالقاهرة والإسكندرية وفى الجامعة الأزهرية وفى دار المعلمين العالية فى بغداد . وقام بعدة أسفار إلى أوروبا . وله كتب مترجمة ومنشورة . وامتاز بهدوء الطبع ووقار العلم . وكنت واحداً من تلاميذه وزملائه وأصدقائه .

(٣) السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ، ١٣٤٩ . ص ٧ .

وولد السخاوى فى القاهرة سنة ١٤٢٧ ودرس بها وتنقل بين مصر والشام والحجاز وصار من علماء التاريخ والحديث . وتوفى فى المدينة سنة ١٤٩٧ . ومن كتبه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » و « التبر والمسبوك فى ذيل السلوك » .

سارت البشرية قُدُمًا في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها ، رويدًا رويدًا ، أخذ التاريخ يُشكّل أساسًا جوهريًا في تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب ، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألوانًا من الأحداث وفنونًا من الأفكار وصنوفًا من الأعمال والآثار .

ومهما كان من أثر القوى الإلهية أو الميتافيزيقية العليا التي يمكن أن تسيطر على مصائر البشرية وأحداث التاريخ ، وهي ما لا يقوى الإنسان بعدد على إدراك كونها وفهم أسرارها ، فإن التاريخ يتخذ مجراه على يد الإنسان بطريق مباشر . وفي ظروف معينة . والإنسان ابن الماضي ، وهو ليس ابنًا لأبويه فحسب ، بل هو ثمرة الخلق كله منذ أزمان سحيقة . والعلاقة وطيدة بين حياة الفرد وبين الحياة في القرون والعصر الماضي . ويذهب بعض المفكرين مثل بنديتكرووتشي إلى اعتبار التاريخ كله تاريخًا معاصرًا . ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضي . ومعرفة الماضي تُكسبه خبرة السنين الطويلة ، والتأمل في الماضي يبعد بالإنسان عن ذاته ، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه ، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه ، وأقدر على حُسن التصرف في الحاضر والمستقبل .

ولكى ندرك أهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ ، فلنُفرض جدلاً أننا استطعنا بطريقة ما أن نقطع صلتنا نهائيًا بالماضي ، وأنها أمكننا أن نحرق دور الكتب ، وندمر كل آثار العمران الراهنة ، وننسى أنفسنا ، فإذا يُنتظر أن تكون عليه حال الإنسان ومصير الحضارة بعدئذ ؟ في الأغلب سيحاول الإنسان أن يعود لكي يبدأ من جديد أشياء تشبه أو تختلف عما كان قد بدأه منذ آلاف السنين ، حتى يصل إلى مستوى ما ، سواء أكان قريبًا أم غير قريب من المستوى الذي قطع عنده صلته بماضيه السحيق . فماضي الشعوب وماضي الإنسان حافل بشتى الصور ، وهو عزيز عليه في كل أدواره ، سواء أكانت عهود المجد والقوة والرفاهية ، أم عهود الكوارث والآلام والمحن . والأقوام الذين لا يعرفون لهم ماضيًا محددًا مدرّسًا بقدر المستطاع ، لا يُعدّون من شعوب الأرض المتحضرة .

ونحن إذ تصفحنا كتابًا عامًا وافيًا عن تاريخ الحضارة الإنسانية ، مثل

كتاب « قصة الحضارة » الذى ألفه ولا يزال يؤلفه ويل دورانت الأمريكى * ،
 نجده قد وضع فى أول الأمر خطةً لصدور كتابه فى خمسة أجزاء . ولكنه عدلها
 وزادها إلى سبعة أجزاء ، ثم عدلها ثالثةً وزادها إلى عشرة أجزاء ، وصدور منها منذ
 سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٦٣ ثمانية أجزاء ، وهى (١) تراث الشرق القديم ،
 (٢) حضارة اليونان ، (٣) عصر قيصر والمسيح ، (٤) عصر الإيمان ،
 (٥) عصر النهضة ، (٦) عصر الإصلاح الدينى ، (٧) بداية عصر البحث
 العقلى ، (٨) عصر لويس الرابع عشر . وقد شاركته فى إعداد هذه الأجزاء ،
 وفى كتابة هذا الجزء الثامن تلميذته وزوجته آريل . ويبقى جزءان قيد الدرس والبحث
 وهما (٩) عصر فولتير ، وكان من المنتظر صدوره فى سنة ١٩٦٥ ، و (١٠) عصر
 روسو والثورة الفرنسية الكبرى حتى سقوط الباستيل فى سنة ١٧٨٩ ، وكان من المنتظر
 صدوره فى سنة ١٩٦٨ ، ولم أتمكن من الحصول عليهما بعد ، مع الأسف ، مع
 سماعى بصدورهما . وقرأت أيضاً أن ويل دورانت قد أصدر فى سنة ١٩٦٩ جزءاً
 مكملًا لهذه السلسلة بعنوان دروس أو عبر التاريخ ، ولكنى لم أتمكن بعد من
 الحصول عليه .

وتناول المؤلف فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب أوجه النشاط الإنسانى
 المتنوعة والظروف التى لا يستها ، منذ أقدم العصور حتى عصر لويس الرابع
 عشر ، وسيصل فيما بعد إلى سقوط الباستيل فحسب ، دون أن يتابع دراسة تاريخ
 الحضارة الإنسانية بعد ذلك ، على اعتبار أنها لا تزال فى دور الغليان والتكوين ،
 مما يجعل الكتابة عنها أمراً أبعد عن مجال قدرته العلمية . وفى الأجزاء المشار إليها
 شرح ويل دورانت حال الإنسان فى بيئته البدائية ، ووصف نموه التدريجى ،
 وتناول سير الحضارة وتطورها ، ودرس البيئات والملوك والحكام ورجال الدولة ،
 وتناول مشاكل السياسة والحرب والسلام ، ودرس مسائل الفلسفة والفكر والدين والعلم
 والأدب ، وفنون التصوير والنحت والعمارة ، وفنون الموسيقى ، وشرح أحوال المجتمع ،

* ويل دورانت (Will Durant) ولد فى ولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فى
 سنة ١٨٨٥ . ودرس فى نيوجيرسى وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك . ودرس التاريخ والأدب والفلسفة .
 وقام برحلات عديدة فى أنحاء العالم ، وتزوج من إحدى تلميذاته التى عاونته فى البحث والتأليف .

ووصف ما نالته الأمم من المجد والرفعة والمنعة ، وما أصابها من الهبوط والتدهور والانحلال . وفي سبيل ذلك طاف المؤلف في صحبة زوجته كثيرًا من أنحاء الأرض مرات عديدة متتالية ، ومضيا معًا باحثين مُنقبين مُشاهدين مُتأملين مُستهلمين معارفهما وخبرتهما من شتى الأصول والمصادر والآفاق ، فجاء الكتاب وافيًا شاملًا ، مع تميزه بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة والعمق والذوق الرفيع ، فضلًا عن عنايته بذكر فيضٍ من المصادر والمراجع لِمَن يرغب في الاطلاع والبحث مزيدًا * . والكتاب في هذا كله يحاول أن يعطينا صورة - أقرب إلى الصحة - بقدر المستطاع - عن المجتمع الإنساني وهو في حالة حركة دائبة لا تفر ولا تهدأ أبدًا ، إذ هي الحياة بذاتها مهما كان اتجاهها أو لونها . وهذه الحركة الإنسانية لا تتكرر ولا تُعيد نفسها على المنوال الذي حدثت به في عهدٍ مضى . وعلى الرغم مما يمكن أن يوجد بينها من أوجه الشبه ، فلا سبيل إلى أن يكون التشابه القائم بينها تشابهًا مطلقًا ، لاختلاف المكان وتغير الزمان .

وعلى ذلك فإننا نجد أنه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنًا اجتماعيًا . فينبغي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وآثاره ، فيدرس مثلًا العوامل التي أدت إلى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك . وما خلقتة

Durant, W. : The Story of Civilization :

- I. Our Oriental Heritage. New York, 1935.
- II. The Life of Greece. New York, 1939.
- III. Caesar and Christ. New York, 1944.
- IV. The Age of Faith. New York, 1950.
- V. The Renaissance. New York, 1953.
- VI. The Reformation. New York, 1957.
- VII. The Age of Reason Begins. New York, 1961.
- VIII. The Age of Louis XIV. New York, 1963.

وكان متبقيًا في هذه السلسلة جزران كانا في طريق الإعداد على أن يصدرا كالاتي :

- IX. The Age of Voltaire (1965).
- X. Rousseau and Revolution (1968).

وقد قامت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية بالقاهرة على نشر ترجمة هذا الكتاب منذ ١٩٤٩ ، واشترك في ترجمته الدكتور زكي نجيب محمود والأستاذ محمد بدران . وصدر من الترجمة ٢١ جزءًا حتى ١٩٥٩ . ويقوم الآن الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس بمتابعة ترجمة هذا الكتاب . وعلى الرغم من فائدة الترجمة يحسن أن يرجع طالب التاريخ إلى الأصل للتقوية في اللغة الإنجليزية .

من الآثار، ويتتبع مثلاً حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر ، وما ترتب على ذلك من تغير طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب ، وما أدى إليه من تدهور أُممٍ وارتفاع أخرى . وينبغى عليه مثلاً أن يدرس العوامل التى أدت إلى ظهور نظام دستورى معين ، ويفهم روحه ومضمونه ، ويتبين أثره فى هيئة الحاكمين وفى مجموع الشعب ، وينبغى عليه مثلاً أن يدرس الأسباب التى أوجدت أنواعاً جديدةً من الأدب ، أو ألواناً جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة ، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى ، ويبين إلى أى مدى ارتبط ذلك كله بالعصر وبالبيئة وبالعبقریات الأدبية والفنية التى خلقت هذه النماذج المبتكرة فى مختلف مجالات الأدب والفن ، وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنسانى ومقومات الحضارة .

وفى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى اختلف بعض رجال العلم والتاريخ والأدب ، فى وصف التاريخ بصفة العلم أو نفيها عنه . فقال بعض العلماء — مثل و . س . جيفونز^(١) — إن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، وبذلك لا يمكن فى دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة ، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً . وما يبعد بالتاريخ عن صفة العلم ، فى نظرهم ، قيام عنصر المصادفة ، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة ، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية ، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم .

ويرى بعض رجال الأدب أنه سواء أكان التاريخ علماً أم لم يكن ، فهو فن من الفنون ، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضى سوى العظام المعروقة اليابسة ، وأنه لا بد من الاستعانة بالخيال لكى تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة ، ثم هى بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز فى الثوب اللائق بها^(٢) . فثلاً

(١) وليام ستانلى جيفونز (William Stanley Gevons. ١٨٨٢-١٨٣٥) من رجال الاقتصاد والمنطق . درس فى جامعة لندن وعلم بها بعض الوقت . وكتب « نظرية الاقتصاد السياسى » و « المنطق البحث » و « دراسات فى المنطق الاستقرائى » و « أصول العلم » . وقد جعل نظرية المنفعة أساس بحثه فى الاقتصاد السياسى . وامتاز بعمق التفكير ، ومات غرقاً .

(٢) هرنشو: (المصدر المذكور) ص ٣ و ٤ .

لا يستطيع العلم الطبيعي أن يفسر لنا حريق موسكو في عهد نابليون بوناپرت في سنة ١٨١٢ ، إلا على أساس قوانين الاشتعال . ولا بد من تدخل المؤرخ لكي يشرح الأسباب والظروف السياسية والعسكرية التي أدت إلى ذلك الحريق^(١) ، ولا بد من قلم المؤرخ - أو قلم الأديب - لكي يصف لنا الحريق وما تركه من الآثار . فكل من العالم الطبيعي والمؤرخ يشرح الحادث بطريقته ، وكل منهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضروري لتقدم المعرفة الإنسانية .

ويرى ف . هرّنشو أنه على الرغم من أننا لا يمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم . وعنده أن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة التيورولوجيا مثلاً ، بسبب عدم دقة قوانينها ، لا يُجيز نبي صفة العلم عنها . وعنده أنه يكفي في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما ، أن يمضي الباحث في دراسته ، مع سعيه إلى توخي الحقيقة ، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد اطرح منه هوى النفس ، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع إمكان التصنيف والتبويب فيه^(٢) .

ويقول ف . هرّنشو إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا . فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته ، لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء . ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشري الإرادي الانفعالي ، حتى يقرب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية^(٣) . وعلى ذلك نجد التاريخ مزاجاً من العلم والأدب والفن في وقت واحد .

وإذا كان علم التاريخ ضرورياً للدراسة الخاصة والعامّة ، ولثقافة الشعوب بعامّة ، فلا بد من بحثه ودرسه وكتابته ، قبل أن يُدرس في المدارس والمعاهد ، وقبل

(١) Fling, F.M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. (١)
New Haven, Yale Un. Press, 1926. p. 20.

(٢) هرّنشو : (المصدر المذكور) ص ٦ و ٧ .

(٣) هرّنشو : (المصدر المذكور) ص ١٢ ، ١٣ .

أن يُقدّم للمختصين والمثقفين على السواء . وينبغي أن يتم ذلك بطريقة وافية دقيقة صحيحة ، بقدر ما في طاقة المؤرخين من جهد وصدق وأمانة وعدل وذكاء وإحساس وفن وذوق ، وبقدر ما يتاح لهم من زمن وإمكانيات في بلدهم ، وفي مواطن البحث والدرس في أنحاء الأرض ، على أن يكون هدفهم الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع ، ولا شيء سوى ذلك .

ولا يُدرس التاريخ عفواً ولا يُكتب اعتباطاً ، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخاً ، كما قد يتصور بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب ، حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ، ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخاً ، ما داموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملأت كتاباتهم رفوف المكتبات ! فلا بد من أن تتوفر في المؤرخ الصفات الضرورية وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادراً على دراسة التاريخ وكتابته .

فمن الصفات الواجب توفرها في المؤرخ - كما في غيره من الدارسين - أن يكون محباً للدرس جلدًا صبوراً ، فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها أو اضطرابها . وينبغي عليه أن يقضى الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لآخر ، في وطنه وفي كل مكان يمكن أن يعثر به على ما يفيده . وينبغي عليه ألا يتسرع أو يقتضب تعجيلاً لنيل منفعة ، لأن هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية .

وينبغي على المؤرخ أن يكون أميناً شجاعاً مخلصاً ، فلا يكذب ، ولا ينتحل ، ولا يناق أصحاب الجاه والسلطان ، ولا يُخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان ، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضي قومه ، إذ أنه لا رقيب عليه غير ضميره . ومن يخرج على ذلك لا يمكن أن يعدّ مؤرخاً . ولا ريب أن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر ، وعدم الكشف عنها يُعدّ تضليلاً وبعدها عن التبصر والمصلحة الوطنية . وقد يكون إخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنياً في بعض الظروف ، كما

تفعل كل الأمم ، ولكن لا بد من ظهور الحقيقة بعد زوال الضرورة التي دعت إلى إخفائها ، حتى يمكن استخلاص أكبر قسط من الحقيقة التاريخية . ولا يمكن أن يكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة .

ويلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء ، فيأخذ الصدق ، أو أقرب ما يكون إليه ، ويطرح جانباً ما ليس كذلك . وإذا أعوزت المؤرخ ملكة النقد سقطت عنه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة . وليس بهذا يُدرس أو يُكتب التاريخ .

وينبغي على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور ؛ وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب ، وأن يكرس نفسه لعمله العلمي في صمت وسكون ، من دون أن يوزع جهده هنا وهناك ، ودون أن يقوم بأعمال أخرى ، نافعة بغير شك ، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه ، إذ أن الحقيقة العلمية التي قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصنوف المناصب أو تزيد عنها . وهؤلاء العاكفون المتفرغون للدرس والبحث في كافة العلوم والفنون - ومنهم المؤرخون - هم الذين يقوم على أكتافهم - على نحوٍ أساسي - تقدم الإنسانية وازدهار الحضارة .

ومن الضروري أن يكون المؤرخ - كغيره من رجال العلم - ذا عقلٍ واعٍ مرتبٍ منظمٍ ، لكي يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث ، وينسق أنواع الحقائق ، ويفيد بها في الموضع المناسب ، ولكي يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان ، ويربط بينها على اتساق وتوافق . وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها ، ويفقد صفته كمؤرخ .

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز . فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصرٍ خاص أو لناحية تاريخية معينة . وهو بمثابة القاضى الذى لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذى يصل إليه من البعد عن التحيز والهوى . وكيف نتظر مِمَّنْ بلغ إعجابه أو كراهته

لعصرٍ ما حدث التحيز ، أن يكتب تاريخاً علمياً ؟ ألن تكون كتابته ملونةً بالتحيز الذى يجعلها تميل إلى جانب أو آخر ، مما يبعد بها عن بلوغ الحقيقة التاريخية ؟

وينبغى على المؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين . وبذلك يمكنه أن يتلمس أخبار الإسكندر ، وقيصر ، وعمر بن الخطاب ، وصلاح الدين الأيوبي ، وابن رشد ، وميكلائنجلو ، وباخ ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون ، ونلسون ، ومحمد على ، وأحمد عرابي ويحسّ ما جاش بصدورهم من شتى العواطف ، ويفهم بقدر المستطاع الدوافع التى حركتهم لاختاذ سلوك معين فى الزمن الماضى ، ويشارك رجال الأمم مواقفهم فى ساعات التاريخ الفاصلة ، فى فترات الانقلاب ، وفى عهود المقاومة ، وفى ظروف النجاح والفشل . وإن آثار الإنسان لتتحدث إلى قلب المؤرخ الجيد فيجد فى ثناياها صدى البشر وصدى نفسه ، وتتجلّى فيه روح العلم والفن ، ويبعث التاريخ حياً ، ويحيى فى التاريخ ، ويعيش للتاريخ .

وإذاً فما الطريق الذى نسلكه لدراسة التاريخ وكتابته ؟ وما منهج البحث الواجب اتباعه فى دراسة التاريخ وكتابته ؟

منهج البحث التاريخى هو المراحل التى يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية - بقدر المستطاع - ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة . وتلخص هذه المراحل فى تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ، ثم اختيار موضوع البحث ، وجمع الأصول والمصادر ، وإثبات صحتها ، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه ، وتحريّ نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ، ونقدتها نقداً باطنياً إيجابياً ، وسلبياً ، وإثبات الحقائق التاريخية ، وتنظيمها وتركيبها ، والاجتهاد فيها ، وتعليلها ، وإنشاء الصيغة التاريخية ، ثم عرضها عرضاً تاريخياً معقولاً .

وينبغى علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، إذ أن هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة ، مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار ، ومثل الأغراض والمصالح . ومنّ ذاك الذى يمكنه أن يعرف

الحقيقة المطلقة في الماضي أو الحاضر ؟ وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعنى الصحيح ، في حدود إمكانه .

وحيثما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ ، لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه ، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره ، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت . وآثار الإنسان كلها ، تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ . وهي تظل أبداً صامته لا تبوح بأسرارها ، إلى أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها .

ومن الأمثلة التي تساعدنا على إدراك ما يواجه المؤرخ من الصعوبات أن بعض آثار الإنسان قد تُشيد للمبالغة والتعظيم ، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية ، والتي لا تدلّ حتماً على أنه أصبح سيد أوروبا على الدوام ، أو النوط الذي ضربه تذكراً لنزوله في إنجلترا ، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً ، وسيبقى هذا النوط كذكرى لأملٍ لم يتحقق ؛ أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد ، مع أن ذلك لا يحدث إلا نادراً ، والأغلب أن الأسود هي التي تفتك بالرجال ، ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالا لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع ، ولكان ذلك معبراً عن الحقيقة * . وأحياناً قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة ، سواء أكان ذلك بقصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة ، أم من أجل الشهرة ، أم للاتجار والكسب . وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان ومخلفاته بروح النقد والحذر ، وكما سنعرف أشياء من ذلك في فصول تالية .

وتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس الجوهرية . فأولاً: ينبغي أن يُفحص نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته ، أي نقوش أو آثار قديمة معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها ، أي أصول ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية وثبت أنها غير مزيفة ، وأن معلوماتها صحيحة ، وأنه

لم يسبق نشرها ، أو على الأقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية ؟ أم أن المادة التي اعتمدها عليها الباحث هي مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية ؟

وثانياً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على قدرة الباحث على الدرس والبحث ، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر والمراجع ، وطريقته في استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها . ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق بحسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط . وأحياناً يضطر الباحثون في التاريخ إلى وضع افتراضات مختلفة لمحاولة فهم مسألة تاريخية ، تواجههم فيها غوامض وفجوات : وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية الخلق أو السياسة أو الاقتصاد ، وبذلك تأتي كتاباتهم متفاوتة أو مختلفة . على أن ذلك كله يقدم للمؤرخ آراء وجهات نظر مختلفة متفاوتة عن عصر أو ناحية معينة ، ولا يمكن أن يحتكر أحدها صفة الحقيقة ، وهي كلها تعطي للتاريخ الحركة والحياة . وتجعل البحث التاريخي مستمراً على الدوام ، باحتمال ظهور أدلة جديدة تلقى ضوءاً جديداً على ما قد يكون غامضاً أو مبهماً من أحداث التاريخ . وبالعكس عدم الاختلاف وعدم التفاوت بسبب انحصار الحمود والركود في دراسة التاريخ ، وفي سائر ألوان العلوم والمعارف ، وفي شتى مظاهر الحياة على وجه العموم .

وثالثاً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناءً على بُعد الباحث عن التحيز والأهواء ، ومطابقته للواقع بقدر المستطاع . وأحياناً يتأثر الباحث بروح عصر معين ، مثل عصر الحروب الصليبية أو عصر الانقلاب الصناعي أو نمو الديمقراطية أو ظهور الاشتراكية . . . فيكتب وهو يحاول إخضاع الموضوع المعين لرأيه وفكره . والكتابة التي يطعن فيها كاتب مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية أو العكس ، لا تُعدّ في إطلاقها صحيحة . فالكتابة التي يتعمد فيها الكاتب أن يتخذ اتجاهًا معينًا ، قد تُعدّ تاريخاً لنوع من التفكير أو النزعات الإنسانية الجديرة بالدراسة ، ولكن لا يمكن أن يُعدّ ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية ، بالنسبة لما تناولته من الموضوعات .

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناءً على ثقافة

الباحث ، وإلمامه بطريقة البحث التاريخي ، وبناءً على استعداده الشخصي وملكاته . وكثير من كتب التاريخ تُعدّ من أمتع ثمرات العقول لنضج عقلية المؤرخ ، وثقافته الواسعة ، وخبرته الوطيدة ، وتبصّره ، ونجاحه في إعطاء وحدة واضحة جامعة ، وذلك بعكس كثير من الكتب التي تُنسب للتاريخ ظلماً وافئساً ، والتي يكتبها من لا يفهم التاريخ ، ومن لا يملك النقد ، ومن لا يتصف بالصبر والجلد والصدق ، ومن لا يطلب سوى المنفعة . ولن تزيد مثل هذه الكتابة عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب . وتصبح مثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها ، وقد لا تساوي الورق الذي طُبعت عليه .